رموز الحضارة اليمنية في شعر عبد الله البردوني

د. علي يوسف عثمان عاتي

أستاذ الأدب والنقد المشارك بكلية التربية سيئون جامعة حضرموت

Aliyousef2009@gmail.com

الملخص

12

تمتد الحضارة اليمنية إلى أبعد مكان في أعماق التاريخ في التقدم والرقي الحضاري فهي مهد العروبة، ومنها تكون النسيج الاجتماعي في كثير من الشعوب والقبائل التي هاجرت على إثر انهيار سد مأرب العظيم ولعل خير شاهد على تلك الحضارات التي بقيت آثارها شامخة على مرّ العصور كعرش بلقيس وسد مأرب و مدينة صنعاء كل ذلك دفع الشعراء للإبحار في فضاء التراث الحضاري كل حسب موهبته ومقدرته على محاكاة تلك الآثار.

والمتأمل في الشعر اليمني يجد أن الشعراء المعاصرين قد غاصوا في التراث البشري قديمه وحديثه وابتعثوا من أعماقه رموز الحضارة والأحداث والشخصيات لتكون وعاء رمزياً يحمل رؤاهم وأفكارهم وتطلعاتهم كما اتجهوا إلى الطبيعة الكونية واستلهموا من تلك العناصر أدوات رمزية في فضاء الدلالة الفسيح ليخلقوا لأنفسهم منها أحاسيسهم وانفعالاتهم ونظرتهم للعالم من حولهم بكل ما فيه من شحنات مؤثرة.

ويكشف هذا البحث عن ظاهرة الرموز الحضارية اليمنية في شعر عبد الله البردوني وما سجلته من حضور بارز في شعره فتجلت تلك الرموز وهي تشارك الشاعر عمق ما يحمله من مأساة أو تفتح له براقة أمل في المستقبل المنشود كما يكشف عن بعض جوانب الإبداع عند البردوني ومدى التوظيف الرمزي للحضارة اليمنية

Yemeni Civilization Elements in

Abdullah Al-Baradoni's Poetry

Summary

Yemeni civilization goes deep in the history of civilization development; it’s Arabs cradle and from it formed the social fabric of many nations, tribes that migrated after the collapse of Great Ma'reb's Dam. The best witness for those civilizations whose runes resist for ages such as Balqis Throne, Ma'reb Dam, Sana'a City. All that has pushed poets to dive into the civilization heritage according to each one's talent and capacity to simulate those ruins

One meditating in the Yemeni Poetry, finds that contemporary poets have dived in the human heritage old/modern and came up with symbols of civilization; actions and characters were symbolic container for their visions, thoughts and aspiration. Through these elements, they've obtained, symbolic tools in the symbolism horizon to create their feelings, reactions and look at the surrounding world with its all effecting powers.

This research explores the Yemeni Civilization Symbols phenomena in Abdullah Al-Baradoni's poetry and their remarkable presence; they've been clearly shown when they share him the depth of tragedy or open a hope window in the hoped future. It reveals some innovation sides of Al-Baradoni and the extent of Yemeni Civilization symbolism.

Allah's behind the intent

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه الكريم(الرَّحْمَنُ ❖ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ❖ خَلَقَ الْإِنسَانَ)(١) والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إنّ المتأمل في الحضارة اليمنية يجد أنها تمتد إلى أبعد مكان في أعماق التاريخ في التقدم والرقي الحضاري فهي مهد العروبة ، ومنها تكوّن النسيج الاجتماعي في كثير من الشعوب والقبائل التي هاجرت على إثر انهيار سد مأرب العظيم ولعل خير شاهد على تلك الحضارات التي بقيت آثارها شامخة على مرّ العصور كعرش بلقيس وسد مأرب و مدينة صنعاء ومسجد الجند وحصن بينون بمدينة ذمار ناهيك عن معالم الطبيعة من جبل شمسان وتلال بنا ووديانها ...كل ذلك دفع الشعراء للإبحار في فضاء التراث الحضاري كل حسب موهبته ومقدرته على محاكاة تلك الآثار.

وإذا ما تجاوزنا فواصل التاريخ الزمنية منذ العصر الجاهلي ومرورا بصدر الإسلام والدولة الأموية فالعباسية والأيوبية فالعثمانية والدولة الرسولية التي قامت في تعز والدولة الصليحية في جبلة... لنصل إلى عهد الإمامة في أسرة آل حميد الدين - التي حملت طيلة فترة حكمها لليمن ما حملته من معاول الهدم في نشر الجهل وإغلاق الذهنية الثقافية في أوساط الشعب بل حجبتها عن الاتصال بالعالم الخارجي بغية المحافظة على مصالحها،وإن وجد شيء من مجلات أو كتب أو دعوات هنا أو هناك وصمها الإمام :بأنها دين جديد ما أنزل الله به من سلطان.

يقول الدكتور عزالدين إسماعيل" صحيح أن الإمامة قد حاولت أن تعزل المثقفين والأدباء هناك عن العالم الخارجي كله لا عن العالم العربي فحسب وأنها نجحت في هذه السياسة إلى حد كبير ..وحاولت منع ما سمته (الكتب العصرية) بدعوى أنها لا تعلم إلا الكفر والإلحاد"٢ .

فالعالم العربي قد انفتح على كل شيء جديد عبر التبادل الثقافي والحضاري بين الشعوب في حين ظلت اليمن في تلك الفترة منزوية على نفسها بحكم نظام الإمام، ولا نبالغ إذا قلنا بأنها كانت رهينة التسلط والظلم وأخذ الرهائن من أبناء المشايخ والذوات والسجون في سبيل الحفاظ على مصالحها الضيقة.

في حين وجد آنذاك من أبناء الشعب اليمني من يرفض الظلم والضيم فقد وُلدت منذ الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي توجهات عدة من المثقفين والمناضلين الذين تحملوا العناء والتعب وضحوا بوقتهم وبأنفسهم من أجل التحرر من عهد الإمامين ليعود اليمن إلى الحرية المنشودة .

---

[١]) سورة الرحمن/١-٣

٢ – د.عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر في اليمن "الرؤية والفن " ،دار العودة بيروت ١٩٨٦م، ص١١١.

وكان من أبرز الأحرار الذين ظهروا آنذاك زيد الموشكي ومحمد محمود الزبيري وعبدالله العزب ومطهر الإرياني وشاعرنا عبد الله البردوني وصفٌ طويل من المثقفين الذين اثروا الثقافة الوطنية في وجدان الناس فكانت قصائدهم وأشعارهم تلهب مشاعر الشعب المغلوب على أمره فأشعلت فيهم جذوة اصطلى بنارها العهد الامامي البغيض فولىّ دون رجعة.

أهمية البحث: تكمن أهمية هذا البحث كونه يسلط الضوء على ظاهرة الرموز الحضارية اليمنية في شعر عبد الله البردوني فنجد أنها قد سجلت حضورا بارزا في شعره فتجلت لنا تلك الرموز، وهي تشارك الشاعر عمق ما يحمله من مأساة لاسيما والشاعر عاش في عهد الإمامة – أسرة آل حميد الدين – التي حملت طيلة فترة حكمها لليمن ما حملته من معاول الهدم في نشر الجهل وإغلاق الذهنية الثقافية في أوساط الشعب ووصم كل جديد بأنه دين جديد ما أنزل الله به من سلطان

كما أن هذا البحث يكشف عن بعض جوانب الإبداع في النص الأدبي في قصائد البردوني من الحوار الدراماتيكي القائم بين ذاتين وسمهما الشاعر في إحدى قصائده بـ" غريبان وكانا هما البلد" وهاتان الذاتان تتحدان في الأفكار والرؤى وإن اختلفتا نسبيا في الجسد وفي التشكل في الأعماق وهو الرمز الذي نلمسه في ثنايا النص الذي يشكل مرجعا للوصول إلى الدلالة الرمزية الكلية في العنوان.

وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي حتى يعكس بما يتناسب وطبيعة البحث.أما أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها هي:الأعمال الشعرية للشاعر عبدالله البردوني وبعض المراجع التي تتعلق بالموضوع.

البردوني في سطور: لست هنا لأعرف بالشاعر وإن كان لزاما علينا أن نعطي عنه نبذة مبسطة وسريعة فهو(عبد الله صالح حسن البردوني؛ شاعر وناقد أدبي ومؤرخ)[1] شاعر يمني(أعمى) كفيف البصر مثقب الوجه والجسد من آثار الجُدَري ..تراه وكأن لا عينين في محاجرهما.. إذا رأيته حسبت أنه رجع إليك من القرون الغابرة بل يخيّل لك وكأنّه جمع تحت جبته بشار بن برد والأعشى والمعري وطه حسين و ربما بدا لنا وكأنّه صورة من أساطير فيكتور هيجو في البؤساء.

يقول الدكتور المقالح:(وأيام البردوني هي أيام اليمن في بلد ضرير كل ما فيه أعمى أو يدعو إلى العمى ولد عبد الله البردوني في قرية"البردون " -سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩م بمحافظة ذمار - وعندما كان طفلا جاء موسم الجدري....بعد أن ترك بصماته على بعض الوجوه،وبعض الوجوه انتزع منها أغلى ما فيها العينين.وكانت عينا الطفل عبد الله من نصيب ذلك الموسم المتوحش)[2] وقد توفي في يوم الاثنين ٣٠ أغسطس ١٩٩٩م بعد أن خلد اسمه كواحد من شعراء العربية في القرن العشرين.وقد شغل العديد من المناصب الحكومية منها:كان

١ – حوار اجري معه في قناة اليمن (فيديو)

٢ – د.عبد العزيز المقالح، شعراء من اليمن، دار العودة ،بيروت، بدون تحديد رقم الطبعة ١٩٨٣م، ص١٧

رئيسا للجنة النصوص في إذاعة صنعاء،ثم مديرا للبرامج في إذاعة صنعاء ثم كان مشرفا ثقافيا لعدة صحف ومجلات، له العديد من المقالات والنشرات الدورية في الصحف.

أما دواوينه ومؤلفاته: فله اثنا عشر ديوانا مطبوعا جمعت مؤخرا في مجلدين وثمان دراسات أدبية[1] كما أنه نال العديد من الجوائز منها:جائزة أبو تمام بالموصل عام ١٩٧١م. - جائزة الأمم المتحدة (اليونسكو) وأصدرت عملة فضيه عليها صورته عام ١٩٨٢م. - جائزة شوقي بالقاهرة عام ١٩٨١م. - كما كتبت عنه العديد من الدراسات ورسائل الماجستير"[2]

مفهوم الرمز: يكاد يكون المدلول اللغوي لكلمة الرمز يحمل معنى واحدا في سائر و مختلف قواميس اللغة العربية فقد ورد لفظ الرمز في لسان العرب" الرمز:تصويت خفي باللسان كالهمس،ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، إنما هو إشارة بالشفتين،وقيل: الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم.والرمز في اللغة كل ما أشرت إليه مما يبان بلفظ بأي شيء أشرت إليه بيد أو بعين"(٣).وفي التنزيل العزيز في قصة زكريا عليه السلام (قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)(٤). ويقال للجارية الغمازة بعينها : رمازة أي : ترمز بفيها وتغمز بعينها(٥).

ومن خلال ما سبق فالرمز يعني لغة الإشارة أو الإيحاء، وهو لن يكون غير ذلك لأن البشر لم يصطلحوا على تلك الرموز إلا لوجود رابطة أو قرينة معنوية بين الدلالة والمدلول. وفي المعجم الأدبي الرمزية تعني" الإشارة بكلمة تدل على محسوس أو غير محسوس إلى معنى غير محدد بدقة ومختلف حسب خيال الأديب، وقد يتفاوت القراء في فهمه وإدراك مداه بمقدار ثقافتهم ورهافة حسّهم فيتبين بعضهم جانبا منه،وآخرون جانباً ثانيا،أو قد يبرز للعيان فيهتدي إليه المثقف بيسر"(٦) .

وقد تعدد جوانب الرمز ولم يقتصر دوره واستخداماته على الجوانب العقائدية،وإنما توغلت وامتدت استخداماته في شتى جوانب الحياة والمعرفة ما بين الأمور السياسية وفي الفنون والعمارة وفي السحر والأساطير والحياة واللغة والأدب وغيرها من جوانب الحياة.بمعنى آخر أن الرمز يقوم على انفعال نفسي معبر فقد يكون إيماني وروحاني وقد تدخل فيه أيضاً الأعراف والتقاليد والمعتقدات وغيرها.

---

١ – أبرزالدراسات:١–رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه ٢– قضايا أدبية ٣– فنون الأدب الشعبي في اليمن٤– اليمن الجمهوري ٥– الثقافة الشعبية تجارب وأقاويل يمنية ٦– الثقافة والثورة ٧– من أول قصيدة إلى آخر طلقة (دراسة في شعر الزبيري وحياته) ٨– أشتات

٢ – عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، المجلد الأول إصدار الهيئة العامة للكتاب اليمن صنعاء الطبعة الأولى ٢٠٠٢م،ص٢٣–٢٩ بتصرف

٣ –ابن منظور،لسان العرب مج٣ باب الراء مادة (رمز) دار المعارف مصر د.ت. ص١٧٢٧.

٤ –سورة آل عمران آية

٥ –ابن منظور،لسان العرب مادة (رمز) ص١٧٢٧.

٦ – جبور عبدالنور،المعجم الأدبي،دار العلم للملايين بيروت .لبنان،ط١٩٧٩،١ ص١٢٤.

إن الرمزية" بشكل دقيق في الأدب هي طريقة أدبية تمتاز بكثرة مؤلفات ذات معنيين،أعني بذلك أن رمزيتها تعتمد على القصة الأسطورية أو المجاز أو الاستعارة وبصفة عامة كانت حقيقتها تتميز برد فعل على حقبة سابقة كان الشعراء فيها مهتمين بإصابة المعنى وتدقيقه مع مراعاة الواقع "١

واعتقد هنا أنّ أي تأصيل للرمز الشعري يجب أن يكون مستقلاً في إطار "الإيحاء"(٢). لأنّ ما يميّز الرمز الشعري عن أنماط الترميز الأخرى أنَّه لغة إيحاء، ويستمد قيمته الرمزية من حركته في سياق شعري يوحي به ولا يصّرح مباشرة. فالإيحاء جوهر الرمز الشعري، وهو المبدأ الأساس الذي استقام عليه مجد الرمزية، والهدف السامي للشعر الرمزي(٣).

إذن فالإيحاء يعني نظاماً من المعرفة والتعبير معاً، فالكلمة تكون رمزاً توحي بأكثر من دلالتها على المعنى، أي أن الكلمة في هذا النظام تتجاوز وظيفتها الإشارية في النظام الدلالي (العام) لتدخل في نظام رمزي مختلف هو فن الإيحاء أو "الإيحائية". ويعتمد الإيحاء على إعادة بناء لون من الانطباع الدلالي ولا يتمثل عبر التعبير المفصّل عن الأفكار وشرح نظامها المنطقي"(٤) .

ومن يقرأ في النصوص الشعرية الحديثة في الشعر اليمني يلمس ذلك فيجد أن الشعراء وخاصة جيل التأسيس قد جعلوا من التراث الإنساني في مراحله المختلفة مطية لبعث رموز الحضارة والأحداث والشخصيات ومحاكاتهم بل الاستتار خلفها للتعبير عن مدى المعاناة أو التحسر على تلك الأيام الماضية.

كما أنَ المطلع على الشعر اليمني المعاصر يلحظ أيضاً أن تقنية الرمز بصورة عامة ظلت تتطور على المستويين الدلالي والبنائي باستمرار، بل ارتبط تطور الرمز في القصيدة المعاصرة بتطور التجربة الشعرية وتحولاتها وبتطور وعي الشاعر ورؤيته إلى الكون والحياة. ولذا نرى أن (الشعر الرمزي يهدف إلى توليد لغة جديدة حية تتفجر ظلاً ولوناً وإيحاءً)٥

ظاهرة الرموز: إنَّ ظاهرة الرموز الحضارية اليمنية في شعر عبدالله البردوني متعددة ويمكن أن نقسم تلك الرموز إلى الآتي: الرموز المكانية والزمانية -والشخوص -ومعالم الطبيعة؛ فالمكانية(كعرش بلقيس

---

١ – هدى فاطمة الزهراء،جماليات الرمز في الشعر الصوفي، رسالة ماجستير جامعة أبي بكر بلقايد–الجزائر ٢٠٠٦م.ص٦٢

٢ – الإيحاء، من الإيحائية(suggestiveness) وتترجم بـــ(قوة الإيحاء)، والإيحاء نقيض التصريح والمباشرة. ونشأ هذا المصطلح في إطار المسرح وربما كان منشؤه هو مسرح الصمت(theatre of silence)، ويرتبط مصطلح الإيحائية بمصطلح النص الدفين أو النص الباطن (sub-text)، وهو النص الموحى به وليس النص المصرح به مباشرة.ينظر: عناني ، ص١٠٩.

٣ – درويش الجندي، الرمزية والأدب العربي الحديث، دار نهضة مصر، د.ت، ص١٠٨. ويرى الدكتور محمد غنيمي هلال أن تسمية المذهب "الرمزي" كانت خاطئة، والأولى أن يسمى "المذهب الإيحائي" لأنه مذهب يبحث في فن الإيحاء. وينظر: هلال، الأدب المقارن، الطبعة الثالثة،مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م، ص١٠ الهامش.

٤ – صلاح فضل، شفرات النص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م، ص٥٣.

٥ –سعد أحمد الحاوي، دور الكلمة في العمل الأدبي، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م، ص١١٢.

ومعبد الشمس)١ و(سد مأرب)٢ ومدينة (صنعاء) بمعمارها الفني و(مسجد الجند)٣ و(زبيد)٤ وحصن (بينون)٥ أو رموز الشخوص(الأشخاص) كـ" سيف بن ذي يزن -الملكة بلقيس –وضاح اليمن–الملكة أروى ....ناهيك عن رموز معالم الطبيعة من (جبل شمسان) و(تلال بنا) ووديانها كل تلك الرموز نجد أنها قد سجلت حضورا ملحوظا وبارزا في شعر عبد الله البردوني فبدت لنا هذه الرموز وهي تشارك الشاعر عمق ما يحمله من مأساة لا سيما والشاعر قد عاش وسجن في عهد الإمامة – أسرة آل حميد الدين – فصور تلك المأساة في إحدى قصائده بقوله وهو يشير إلى السجن والعمى والقيد:

هدني السجن وأدمى القيد ساقي ❖ فتعاييت بجرحي ووثاقي
وأضعت الخطو في شوك الدجى❖ والعمى والقيد والجرح رفاقي
في سبيل الفجر ما لاقيت في❖ رحلة التيه وما سوف ألاقي
سوف يفنى كل قيد وقوى ❖ كل سفاح وعطر الجرح باقي

هذه الكلمات الثلاث اختزلت الرمز المكاني والنفسي فسجلت معنى الأسى (السجن –العمى -القيد) فالسجن هو الرمز المكاني لما حل به من الظلمة والظلام والظلم. وفوق هذا وذاك هو حبيس العمى فالحاكم والقيد والعمى جعلت منه شخصا يبحث عن طريق الفجر هذا المعادل الزماني"في سبيل الفجر ما لاقيت في رحلة التيه" هذه الحياة التي أضاع فيها الخطو نتيجة حتمية فما هي إلا بمثابة شوك أصابه في ساعة الدجى والظلام لكن الأمل دائما يحدو الشاعر ويستشرف المستقبل في قوله :

سوف يفنى كل قيد وقوى ❖ كل سفاح وعطر الجرح باقي

والجميل لدى الشاعر وإن بدأ بالروح التشاؤمية "هدني السجن..." لكنه في مجمل قصائده يختم بالروح التفاؤلية التي ينشدها في كل وقت وحين ويتحول الجرح النازف الدامي إلى رائحة عطرية زكية تكشف السعادة والأمل المنشود بزوال وفناء كل أسباب التعب والعناء والأسى.

في حين نجد أن الشعر المعاصر ظهرت فيه أهم سمة مميزة وهي استخدام الأسطورة كرمز يسمح للشاعر أن يُجسم من خلالها وجهة نظرٍ شاملة في الحقيقة الواقعة "٦ وذلك لأن الرمز باستطاعته اختزال العالم

---

١ – يقعان في محافظة مأرب

٢ – سد مأرب يقع في محافظة مأرب

٣ – يقع في مدينة تعز وقد بيني في زمن معاذ بن جبل الصحابي الجليل –رضي الله عنه–

٤ – تقع في مدينة الحديدة مشهورة بمدينة العلم والعلماء

٥ – حصن من المرمر: بناه الملك أسعد الكامل يقع في منطقة ثوبان–الحدا بمدينة ذمار وليس له شهرة بين الآثار على غرابتة لصعوبة الوصل إليه

٦ – مجموعة من المؤلفين :د.أحمد نعيم الكراعين وآخرون نصوص و دراسات أدبية ص ٢٢٧

كلّه في فضائه اللا محدود لتصبح لغة الشعر " هي لغة الإشارة في حين أن اللغة العادية هي لغة الإيضاح ،فالشعر بمعنى آخر ما جعل اللغة تقول ما لم تتعلم أن تقوله.

التوظيف الإبداعي للرمز عند البردوني: إن توظيف الرمز في القصيدة الحديثة سمة مشتركة بين غالبية الشعراء على مستويات متفاوتة من حيث الرمز البسيط إلى الرمز العميق إلى الرمز الأعمق علماً أن الرمز أو الترميز في الأدب بعامة سمة أسلوبية وأحد عناصر النص الأدبي الجوهرية منذ القدم إلا أننا نراه قد تنوع وتعمق وسيطر على لغة القصيدة الحديثة وتراكيبها وصورها وبنياتها المختلفة.

و قد تعامل الشعراء مع الرمز بأسلوب لطيف وتوظيفه بصورة أو أخرى في طرائق متعددة ومذاهب أشتات ومناهج متنوعة ، ومناحي متعددة كلٌ حسب طاقته الإبداعية ومقدرته الفنية ، وعبقريته في استخدام اللغة الشعرية فمنهم من ارتقى بتوشيته للعمل الأدبي الإبداعي بالرمز مما جعله يرتقي درجات عُلا في الموسيقى الشعرية ، إذ يصبح الرمز قلباً نابضاً وأحاسيس مجنحة وروحاً محلقة ، ومنهم من استخدمه آلياً ، فأصبح بذلك النص الأدبي قبراً ينام فيه هذا الرمز الأسطوري أو ذاك ، فينخفض بذلك العمل الشعري إلى درجة الصفر على حد تعبير رولان بارت ، من هنا كان (أخطر شيَ على الشعر هو استخدام الرمز فيه بطريقة آلية)١

وقد وضع النقاد (معايير نقدية لقياس الرمز في النص الشعري من ناحية الطول والعمق، وهي تعتمد في جُملتها على درجتي الانتشار والكثافة ومداهما، إذ يمكن للرمز أن يستغرق القصيدة بأكملها ، ويمكن أن لا يمتد بهذا الشكل بل يظلُّ محصوراً في نطاق محدود من القصيدة ، الأمر الذي يؤثر في عملية التشكيل الرمزي ويحدد مداها نوعياً)٢ .

ونحن هنا سنقف عند الشاعر عبد الله البردوني كونه يمثل أحد الشعراء المعاصرين في اليمن الذين أسهموا إسهاماً بارزا في مجال الرمز بل ومشاركته الظاهرة فهو يجنح في كثير من عناوين الدواوين من أرض بلقيس ، مدينة الغد، وجوّاب العصور، والسفر إلى الأيام الخضر ...إلخ. كلها كما نلحظ لها دلالة إيحائية كذلك نجده في عناوين قصائده كما في " السفر إلى الأيام الخضر، وأغنية من خشب ، ألوان من الصمت و جوّاب العصور ، و زيد الوصابي.... فالرمزية ، والدلالة الإيحائية واضحة جداً.

وقد مكنت البردوني عبقريته الفذة ، وقدرته الابتكارية العظيمة ، إلى جانب توظيفه الرمز القديم واستدعاء الأسطورة القديمة المستوحاة من التاريخ العربي كأبي تمام و وضاح اليمن ، وأبن المفرغ الحميري أو

١ – د. عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص ٢٥٧

٢ – صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م، ص ١١٣

من التراث الشعبي من كل ما سبق وغيرها من القصائد التي تفيض بهذا الأسلوب الإيحائي الجميل استطاع الشاعر أن يخلق لنصوصه رموزاً لها دلالتها وقدرتها على بعث الروح في النص الشعري ، وبقدرة فائقة نجد الشاعر (يرتفع بالواقعية الفردية المعاصرة إلى مستوى الواقعة الإنسانية العامة ذات الطابع الأسطوري)١ .

ولعل التفات الشعراء إلى التراث الإنساني وتوظيف عناصره في بنية القصيدة الشعرية كان من أهم حلقات التطور التي ميَّزت القصيدة المعاصرة عن القصيدة التقليدية والسمو بها إلى رتب عليا في الدلالة والبناء، حيثُ (أصبح التراث يشكل ركناً من أركان الحداثة وطريقاً من طرق ابتكارها)٢

ولعل ما قدمه لنا البردوني من رموز الحضارة اليمنية في أعماله الشعرية كان هدفه أن" يوقظ الذاكرة على تاريخ يمني عريق في المقاومة وصنع الحضارة، أو على تراث من المثل والعادات والتقاليد، وبذلك يصل التعبير إلى مدلوله الأعمق إذ يقول تجذر الإنسان في أرضه وتاريخه، ويقول أيضاً شوقه المستقل رغبة في صنع وجوده الكريم وصولاً إلى فرحه العادل بالحياة "(٣).

لكن الشاعر البردوني هنا تمكن من هدم هذه المقولة وأثبت أن الشكل القديم والإطار القديم للقصيدة العربية بمقدوره أن يستوعب كل أشكال التجديد وعناصره التي منها ولا شك الرمز والأسطورة.وقد أكد الدكتور المقالح ما أشرنا إليه في تقديمه لكتاب البردوني " رحلة في الشعر اليمني " حيث يقول :"البردوني في طليعة مدرسته كان ابتداعياً مجدداً في اللفظة وفي الصورة وفي الموضوع أيضاً "٤ .

١ -الرمز المكاني:(اليمن) مَنْ صنع الحضارة : وهنا نعرض بعض أسماء الأماكن التي برزت فيها الرموز الحضارية التي بقيت خالدة على مرّ العصور شامخة برغم عوامل الزمن المتعاقبة عليها. يقول البردوني في قصيدة "من أرض بلقيس"وهي عنوان ديوانه، وقد اختزل فيه مضمون الحضارة اليمنية المتمثلة في اليمن السعيدة والإشارة إلى بلقيس:

من أرض (بِلقِيسَ)٥ هذا اللحن والوتر ❖ من جوّها هذه الأنسام والسحرُ

من (السعيدة)٦هذي الأغنياتُ ومِنْ ❖ ظلالها هذه الأطياف والصّورُ

١ – د. عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص ٢١٤

٢ –محمد رضا مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣م،ص٢٠٤.

٣ -يمنى العيد،شعر المقالح،مرجعيته وشعريته، ضمن كتاب النص المفتوح، دار الآداب،بيروت،١٩٩١م، ص ١٥٥.

٤ – عبد الله البردوني، رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه،دار الفكر بدمشق ، الطبعة الخامسة ١٩٩٥م ص١١

٥ – بلقيس بكسر الباء والقاف ملكة سبأ وزوج سليمان –عليه السلام– وأرض بلقيس كناية عن اليمن.

٦ السعيدة كناية عن اليمن ، وهي تسمى من القدم بالعربية السعيدة.

من خاطر(اليمن)الخضرا ومهجتها ❖ هذي الأغاريدُ والأصداءُ والفكرُ

يا أمّيَ اليمن الخضرا وفاتنتي ❖ منكِ الفتون ومني العشق والسّهرُ

من هذه الأرض حيث الضوء يلثمها❖وحيث تعتنقُ الأنسام والشّجرُ

ما ذلك الشدو؟ مَنْ شاديه؟ إنهما ❖ِمن أرض بلقيسَ هذا اللحن والوترُ[1]

فنلحظ منذ الوهلة الأولى في النص العبارات التالية " من أرض بلقيس - من السعيدة – من خاطر اليمن - يا أمّيَ اليمن -ِمن أرض بلقيسَ" في حين لو حصرنا الضمائر التي تدل على الأسماء المذكورة لوجدنا أنها تمثل دلالة رمزية للوطن الذي يعيش فيه هذا المواطن كما توحي لنا بالتاريخ الذي ينبعث منه الضوء وتأتي منه الأنسام وشدو الألحان وعزف الأوتار بما يبعث في النفس الأمل والفرح والسرور لاسيما والشاعر يعيش في ظل عهد الإمامة.

ولا أدري أهو هروب من الحاضر أم أن الأمر مقارنة بين الماضي والحاضر؟!وإن كنت أعتقد أن الشاعر هنا في محل تنازع بين ذاتين الأولى تتحدث عن الماضي المشرق وبين الذات المعذبة في العهد الحاضر وما تحمله من معاني التعب والألم وسوء الطالع. وفي نص من ديوان (في طريق الفجر) نجد حشدا هائلا من الكلمات،وهي تشير إلى الحضارة بل ويصرح بذكرها حيث يقول في قصيدة" زحف العروبة"قيلت سنة ١٩٥٨م في حكم الإمام:

أترى ديار العرب كيف تضافرت ❖ فكأنّ (صنعا)٢ في دمشقَ روابي

وكأن(مصرَ) و(سوريا) في(مأرب)٣ ❖ علمٌ وفي(صنعا) أعزُّ قبابِ

فها هنا اليمن الخصيبُ مقابرٌ ❖ ودمٌ مباحٌ واحتشادُ ذئـابِ

ذكرّهُ بالماضي عسى يبني على ❖ أضوائه مجدا أعزّ جنابِ

ذكرّه بالتاريخ واذكر أنّـه ❖ شعبُ الحضارة مشرقُ الأحسابِ

صنع الحضارة والعوالمُ نومُ ❖ والدهر طفلٌ في مهودِ ترابِ

وهدى السبيل على الحضارة والدُّنا ❖ في التيه لم تحلم بلمح شِهابِ

---

١ – عبدالله البردوني، ديوان من أرض بلقيس المجلد الأول ،ص٥٧-٥٨

٢ –مدينة صنعاء عاصمة اليمن تكرر ذكرها في أكثر من موطن في هذا القصيدة

٣ مدينة مأرب كانت بها مملكة بلقيس وهي تقع شرق صنعاء إحدى محافظات الجمهورية اليمنية وبها سدّ مأرب العظيم.

صمت الشعوب على الطغاة وعنفهم❖ صمت الصواعق في بطون سحابِ

قل للإمام وإنْ تحفّز سيفه:❖ أعوانك الأخيارُ شرُّ ذئابِ

وغدا سيحترقون في وهج السَّنى❖ وكأنهم كانوا خداع سرابِ

وتفيق(صنعا) الجديد على الهدى ❖ والوحدة الكبرى على الأبوابِ[1]

إن الرؤية الواقعية لدى الشاعر هنا تبصره بالواقع بوصفه حركة مضطربة تموج بالجدل حيث تشارك عناصر وروافد كثيرة متجانسة في صنعه فهو إذاً لا يقف عند تسجيل ظاهرة مجردة بل يجد نفسه يغوص في الأعماق كي يستكنه حقيقة ممتدة من الماضي إلى المستقبل من خلال الرمز التاريخي "صنعاء -مأرب - اليمن "المشبع بالمغزى والدلالة ومن عمليات الترابط المعنوي بين الأبنية والتراكيب وغيرها من الوسائل التي تساعد على الأداء الفني الرائع إن الشاعر يضع رجلا في الماضي والأخرى في الحاضر والنظرة التفاؤلية للمستقبل من خلال عبارة"وتفيق(صنعا) الجديد".

وربما رؤية الشاعر لحركة التاريخ وحتميته هي ما مكنه من فهم طبيعة ما حدث في الواقع اليمني المعاصر فلم تكن اليمن وحدها هي التي ضاعت زمنا طويلاً وراء الزمن وانحرفت عن مسار التاريخ والحضارة وإنما هناك غيرها. إنه يرسم معاناة ومأساة شعب صمت طويلا لكن هذا الصمت هو أشبه بالصواعق التي تختفي حينا خلف السحاب ثم تزمجر وتثور على الطاغي والطغاة فتحرقهم بوهجها لتجمع الشعب في وحدة كبرى.

إنّ التأمّل في لغة الخطاب هنا يكشف لنا أنّ استخدام الكلمات التالية" فكأنّ (صنعا) - وكأن(مصرَ) و(سوريا) -اليمن الخصيبُ مقابرٌ - صمت الشعوب - ذكرّهُ بالماضي - ذكرّه بالتاريخ - شعبُ الحضارة - صنع الحضارة - وتفيق(صنعا) -" يشي بالقلق الداخليّ والحركة التي تنمّ عن حيرةٍ تبحث عن هداية، وشكٍّ ينقّب عن يقين"[2].

إن الشاعر البردوني يوظف الرموز المستمدة من التاريخ الثقافي والحضاري لليمن، في محاولة منه لخلق وشائج وصلات بين تلك الرموز الضاربة جذورها في أعماق التاريخ اليمني وبين لحظة الحاضر للشاعر وجيله أو الأجيال القادمة فاتحا آفاقا واسعة أمام النص الشعري فيأتي الرمز عبارة عن ومضة إلماحية في النص، هذه الومضة عميقة الدلالة،غنية الإيحاء، تحقق العلاقة بين الخاص والعام،الحاضر والماضي .

---

١ – عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، المجلد الأول ص٥٣–٥٧

٢–د.عبد الله حسين البار مقال بعنوان بناء القصيدة في شعر عبد الله البردوني – عبر الانترنت

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن البردوني التزم منهجا واحدا هو منهج البناء التقليدي وهو منج تراكمي وهو ما يجعلك قراءة البيت الشعري المفرد مستقلا عن القصيدة التي ورد فيها كما تجعل من المستطاع كذلك القفز من بيت إلى بيت لاحق له أو سابق عليه بخلاف المنهج البنائي الجديد والتطوري الذي لا يسمح لك بهذا.

٢ - الرمز في(الأشخاص) أو الشخوص: وإذا كان البردوني فيما مضى من النصوص ذكر الآثار الحضارية مباشرة وحدد أسمائها فهو أيضاً قد يشير بطريق غير مباشر للحضارة مستخدما الشخوص رموزاً دالة على تلك الحضارة فيقول في قصيدة الغزو من الداخل:

يمانيون يا(أروى ١)❖❖ ويا (سيف بن ذي يزن)٢

ولكنّا برغمِكما ❖ بلا يمنٍ بلا يمنِ

فالشاعر يرى أن أجداده القدماء قد صنعوا الحضارة والأمجاد على أرضهم العصية التي يقارنها اليوم وقد غدت غريبة ضنية من دون وعاء ولا غطاء على أيدي الأحفاد. وهذا ما أراد الإشارة إليه هنا فهو يشير إلى الملكة (أروى) التي حكمت الدولة الصليحية وكذا يشير إلى(سيف بن ذي يزن) فهو الذي يبحث عنه الشاعر في بقاع الأرض كمعادل موضوعي للمنقذ كونه ينشد تخليص الوطن من الطغاة.

وفي قصيدة(أبو تمام وعروبة اليوم) يعلن صراحة أن صنعاء تلك الجميلة في حسنها لاقت المرض وسوء الطالع لمن يصبو إلى هذه المعشوقة فكان مصيرها كمصير وضاح اليمن الذي ألقي في البئر بلا ثمن ودون أن ينال مراده.

ماذا أحدث عن"صنعاء" يا أبتي ❖ مليحة عاشقاها: السل والجرب

ماتت بصندوق" وضاح"٣بلا ثمن ❖ ولم يمت في حشاها العشق والطرب.

---

١ – الملكة أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، حكمت اليمن. وقد لقبت ببلقيس الصغرى نظرا لرجاحة عقلها وذكائها، وقد جعلت من مدينة جبلة عاصمة لها حيث تقع إلى الجنوب من مدينة إب، التي انتقلت إليها من صنعاء في العام ٤٥٨ هـ وبقت فيها حتى وفاتها في العام ٥٣٢ هـ حيث تم دفنها في الجامع الذي قامت هي ببنائه. فيما كانت ولادتها في ٤٤٠هـ– ١٠٤٨م، انظر":ابراهيم احمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية،دار الكلمة للتوزيع والنشر،صنعاء ،اليمن٢٠٠٢م، مادة (جبلة)ص٢٨٥.

٢– ملك بني حميري عاش في الفترة بين ٥١٦ – ٥٧٤، اشتهر بطرد الأحباش من اليمن، و تولى الملك فيها.

٣ –هو عبد الرحمن بن إسماعيل،شاعر يماني غلب عليه لقب وضاح اليمن لإشراق وجهه ووضوحه .أحبته أم البنين زوج الخليفة الوليد بن عبد الملك وعندما اكتشف أمره ساعة وصل خبأته في صندوق،وعندما عرف الخليفة أخذ الصندوق ورماه في بئر كانت تحت بساطه.

فالأسلوب الاستعاري لصنعاء له دلالة إيحائية واضحة كيف جعل من المدينة فتاة معشوقة حيث أضفى عليها الصفة الإنسانية لكن الأسلوب الساخر لدى الشاعر ظهر في العشاق الذين وسمهم بالسُل والجرب وهي قمة السخرية وهي رمز لدلالة المتنافسين على سلطة الحكم في حين كان الأجدر بأن يعشق من يسمو الجمال في الخلق والشكل بنفس صورة المعشوقة (صنعاء)

٣ - الرمز الزماني: يُعد الزمن عصا يتكأ عليها الشاعر في استدعاء تلك الشخصيات أو الأماكن عبر قرون مضت لها انعكاس على المستوى النفسي الذاتي وتذكير للأجيال القادمة بتاريخيها وتعريفهم بمواقفهم المشرقة في أنحاء المعمورة فيقول البردوني:

ذكرّهُ بالماضي عسى يبني على ❖ أضوائه مجدا أعزّ جنابِ

ذكرّه بالتاريخ واذكر أنّه ❖❖ شعبُ الحضارة مشرقُ الأحسابِ

صنع الحضارة والعوالمُ نومُ❖ ❖والدهر طفلٌ في مهودِ ترابِ

لعل الزمن يظهر لنا جليا ذلك الماضي الذي عاش فيه الأجداد الأوائل في قمة المجد والعزة إنه بهذه الإشارة يبعث في النفس الحنين للماضي كيف لهم وصلوا إلى تلك المكانة وليس بغريب أن يكون من هذا الجيل أو الأجيال القادمة مَنْ يعيد الأمجاد المندثرة كيف الرعيل الأول صنع الحضارة في وقت كانت الأنام حوله تعيش في سبات عميق وإذا أردنا استقصاء ذلك عبر الجمل والأفعال سيطول بنا المقام ولكن نكتفي بالإشارة إليه.

الحوار الدراماتيكي في تشكيل الرمز :لست هنا في استقصاء لكل ما ورد من ذكر الرموز الحضارة اليمنية في شعر البردوني وإن كانت من صميم بحثنا لكنني هنا أقف عند نص شعري كامل أوضح من خلاله هذه الظاهرة الرمزية التي أبدع فيها الشاعر ووظفها توظيفا جميلا يعكس القدرة الإبداعية التي تميز بها البردوني ففي قصيدة "غريبان وكانا هما البلد"١

وبالتأمل في قصيدته التي تحمل عنوان " غريبان وكانا هما البلد " إحدى قصائد ديوانه " السفر إلى الأيام الخضر " نحاول أن نعيش مع التشكيل الرمزي في هذا النص وكيف تعامل معه البردوني

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذا النص هو رمزية العنوان " غريبان وكانا هما البلد " إلاّ أننا نرجئه إلى نهاية التحليل .لنمضي بداية في تلمس الرموز الجزئية في ثنايا النص التي تشكل مرجعاً للوصول إلى الدلالة الرمزية الكلية في العنوان .إن النص أساسا يتكئ على بُعدين رئيسين ، ثانيهما ينبثق من ثنايا الأول .

١ - عبدالله البردوني:الأعمال الشعرية المجلد الأول ص٧٠٣ -٧٠٦

أمَّا الأول فهو الحوار الدراماتيكي القائم بين ذاتين وسمهما الشاعر بـ " غريبان " وهاتان الذاتان تتحدان في الأفكار والرؤى والانتماء وإن اختلفتا نسبياً في الجسد وأمَّا الثاني وهو المتشكل في أعماق الأول المنبثق عنه فهو الرمز والرمز الأسطوري ويظهر جلياً حين يقول :

لعله " دبعيٌّ " أصل والداه من " يافع " أُمُّه من " سورة المسد "

ولعل التوظيف الرمزي يظهر لنا بوضوح في قوله " أمه من سورة المسدِ" إذ يشير الشاعر هنا إلى حمالة الحطب في قوله تعالى " وامرأته حمالة الحطب "[1] وتتجاوز دلالتها في المواضعة " كما وردت في النص القرآني " لتصبح دالاً يمنح مدلولاً هو الفقر والكدح والعذاب والشقاء الذي تعيشه هذه المرأة لاسيما حين وصفت بأنها حمالة الحطب وهي أشارة خفية من سورة المسد . وهو ذاته ما نجد في قوله:

عرفته يمنيـًا في تلفته ◆◆ خوفُ وعيناه تاريخ من الرمدِ

لاحظ الكلمات التالية " الخوف ، وتاريخ من الرمد - " كل تلك الكلمات والعبارات تدل على الرمز؛ رمز الكدح والمعاناة والأسى الذي يعيشه هذا المواطن لكن تجلّي الرمز بصورة أقوى وأجمل وظهر في قوله:

عرفت من أنت يا عمي تلال"بَنَا"[2] ◆◆ (عيبان)أثقله غاب من البردِ

شمسان" تنسى الثريا فوق لحيته ◆◆ فاها وينسى ضحىً رجليه في الزبدِ

بينون"عريان يمشي ما عليه سوى◆◆ قميصه المرمريّ البارد الأبدي

صخرُ من السد تجتاز المحيط إلى◆◆ ثانٍ ينادي صداه من رأى عمدِ

٤ -الطبيعة :تمثل الحقل الدلالي الذي يستلهم منه الشاعر رموزه هنا فيبرز حقل الطبيعة والبيئة التي يعيش فيها الإنسان ، ولكل رمزٍ من هذه الرموز " عيبان" : شمسان" "بينون" " صخر من السد" دلالتها المستمدة من التاريخ اليمني ، والشاعر في توظيفه لها في السياق النصي يضفي عليها إيحاءات جديدة تسهم في إثراء الدلالة وتوسيعها .

فعيبان متصل تاريخياً بالثورة ، وشموخه من شموخها ، غير أن الشاعر يتجاوز ذلك يحمله ، من خلال السياق النصيّ شحنات تعبيرية يضفى عليها اللفظة ورودها في المشهد الدراماتيكي انفتاحاً معنوياً ،

[1] سورة المسد: ٤

٢ – يقع في مدينة إب يشتهر بالخضرة وهو كناية عن الإخصاب

فتبدو - لفظة عيبان رمزاً للوطن الذي يتماهى معه المواطن المغترب ويتجسده وتوضحه الاستعارة المكنية التي ورد فيها الرمز .

وهنا تتشعب الدلالات فتصبح لفظة " عيبان" دالاً يستدع أكثر من مدلول إذ يظهر تارة في المواطن المغترب عن بلاده وأهله . وقد أثقلته الهموم وأسقمته المآسي وأضناه الوجد والحزن. ويظهر تارة أخرى في الوطن الذي تكالبت عليه الأوجاع وأثقلته المآسي والصراعات وتصبح غابات البرد رمزاً آخر للجفاف والجدب والجمود معنوياً وحسياً

وتارة ثالثة أخرى يظهر وقد تجاوزت اللفظة تلك المدلولات لترتبط بمدلول ذي علاقة بالمدلول التاريخي للفظة " عيبان" الذي هو الثورة لكنها لا تستقر عند هذا المعنى إذ يسهم السياق النصيّ في تدميره " المعنى" وخَلْقِهِ من جديد بعد تحمليه شحنة تعبيرية مغايرة فعيبان مرتبط تاريخياً بقيام الثورة التي تعني التخلص من عهد مثقل بقيود الظلم والفقر والجهل والمرض وبزوغ فجر جديد .

لكنَّ " عيبان" في النص تتساقط عليه غابات البرد ما يمنحه صفة الاستكانة والعجز والجدب والصمت " السكوت". وقد تصبح تلك الصورة" غابات من البرد " – رمزاً للشيخوخة وفيها ما فيها من العجز والضعف وفي هذا ما يتراسل دلالياً مع الرمز في البيت التالي :

شمسان تنسى الثريا فوق لحيته ◆◆◆◆ فاها وينسى ضحىً رجليه في الزبد

إذ تتجاوز اللفظة " شمسان" المدلول الأصل لتتلبس عدة مدلولات أخرى تظهر حيناً في ذلك المغترب الذي ألبسته الغربة حُلّة الشيخوخة ، وحيناً في الوطن المتدثر بالأسى والضعف مما أسهم في إضفائه - المدلول - المجاز المكاني " شمسان" إضافة إلى عنوان النص " غريبان وكاناهما البلد " .

والأعمق من هذا وذاك الرمز العكسي المتمثل في شيخوخة شمسان "تنسى الثريا فوق لحيته فاها" وكذلك نسيان رجليه في الزبد" الرغوة " في الضحى إذ تشير الأولى " الشيخوخة " إلى الضعف والوهن وتوحي الثانية إلى الاستكانة والاستقرار في ما لا فائدة فيه "الزبد" فنسيانه رجليه في الزبد رغم طلوع الضحى "النور" يجعله قابعاً في الظلام لا يفارقه وهو ذاته ما لوحظ في عيبان .

ونلاحظ أيضاً التوظيف الرمزي في سياق التركيب الاستعاري التجسيدي وتكرار الفعل المضارع " تنسى، ينسى" له أثر لا يخفى عن المتذوق لهذه الصورة فقد زاد الفعل المضارع في إثراء النص جمالياً ودلالياً . وفي نفس الخط التعبيري للرمزين السالفين يسير الرمز المستوحى من ذات الحقل الدلالي ذلك الرمز هو حصن بينون" في منطقة(الحدا) محافظ ذمار – المرتبط تاريخياً بالملك أسعد الكامل.

ويظهر هنا الرمز في ذلك الحصن الذي يرمز للألم والانكسار المتولدان عن الفقر " عريان ما عليه سوى قميصه المرمريّ البارد " وتكتسب هذه الصفات الديمومة من قوله الأبدي فتتضافر الرموز المتوالية مع بقية العناصر اللغوية في السياق النصيَّ لإنتاج الدلالة وإثراء النص دلالياً وجمالياً فاستخدام الرمز في السياق الشعري لا يقتصر على الوظيفة التعبيرية الإيحائية وإن غلبت عليه؛ بل يتجاوزها ليسهم إسهاماً فاعلاً في إنتاج الوظيفة الشعرية متآزراً مع بقية عناصر النص وهو ما يشف عنه استخدام الرموز السابقة وفق السياق الإستعاري بعد تحمليها وشحنها شحنات تعبيرية دلالية عكسية ، ما يكسبها صفة " المفاجأة" وهي ما وصنفها الدارسون المحدثون على أنها أحد عناصر إنتاج الشعرية في النص.إذ أن الملتقي الذي في مخليته للفظة دلالة واحدة هي الأصل فيها تداهمه الدلالة الجديدة النصية فيحدث له ما يسميه أصحاب نظرية التلقي بخيبة التوقع "١

إن عبقرية الشاعر لا تقف به عند هذا الحدّ في التعامل مع الرمز الأسطوري بل يتعداه إلى أنماط أخرى من التوظيفات الرمزية في نطاق التجربة الشعرية والسياقية النصية معاً ، وإن ظهر الرمز الشعريَّ منفردا في السياقات السابقة إلاَّ أنها في السياق التالي تتداخل وتتشابك وتنصهر معاً بما يخدم النص ففي قوله :

" صخر من السد "٢ يجتاز المحيط إلى◆◆ ◆ ثانٍ ينادي صداه من رأى عُمَدي "

هو الإشارة إلى سد مأرب المتمزقة أشلاؤه المتهدمة أركانه غير أنه يتعدى ذلك لصبح رمزاً للتمزق والشتات اللذان يعاني منهما المواطن اليمني المغترب ما يفصح عنه تجسيد الذات المخاطبة به ، لكن المتأمل في البيت الشعري المتمعن في أعماقه يتبين رمزاً آخر ذابت فيه الذات المخاطبة المتجسدة في " الصخر من السد " فتلاشى و أوغل في الغياب مع حضوره في الذهن ، فتجلى في السياق ومضات أشارية توحي إليه لتتدخل المرجعية الثقافة لدى المتلقي أو الدارس في استرجاعه واستبيانه .

الحقل الأسطوري (التراث الشعبي): يغدو الرمز أو الأسطورة " بمثابة خلفية للموقف الشعوري الذي يعبر عن الشاعر "٣ ذلك الرمز الأسطوري هو " السندباد " المستمدة من الحكايات الشعبية، رمز السندباد، والسندباد كما تقدمه حكايات ألف ليلة، رحالة بغدادي يركب البحار ويخوض عبابها مدفوعاً بحب المغامرة وحب ارتياد المجهول، وقد حبذ الشعراء هذا الرمز بوصفه رمز الكشف والمغامرة الخلاقة نحو اكتشاف المجهول"(٤). غير أن المفارقة تتدخل لتغير مسار الأسطورة الشعبية وتخصصها لتصبح أسطورة نصيّة

١ –د. عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص ٢٥٧ .

٢–إشارة إلى سد مأرب الذي تهدم وأصبحت أحجاره شريدة يسأل بعضها عن بعض

٣ – د. عزالدين، إسماعيل، الشعر العربي المعاصر ص ٢١٤

٤ – محمد عبد الرحمن يونس، مقاربات نظرية في أهمية الأسطورة.....، ص٣٩،٤٣.

بردونية– إن صح لنا التعبير – إذ أن السندباد في الأسطورة الشعبية هو رجل كان يستمتع باستكشاف المجهول بينما السندباد في النص يشتم المجهول لأنه يريد ذلك ، لكن لأن الأصل في تكوينه غاص في لجج المجهول وأوغل في الغياب المطلق ، فرحلة البحث الطويلة للبحث عن معلوم غائب ، وثمة بُعدٌ آخر ذو ارتباط عميق للأول هو "صداه" فالرموز الشعرية هنا تتركب على نحو من التداخل والتوالد والتناسل ما يمنح النص صفة الكثافة والعمق مع نسبة الشفافية تسهم في إثراء التجربة دلالياً وجمالياً .

وتلتقي هذه الرموز المتداخلة المتآزرة في نقطة واحدة يبرز من خلالها المدلول المتمثل بالانكسار والأسى والحزن الناتج عن هذا التشتت والتمزق والتشرذم الذي سيطر على الذات مخاطبة ومتكلمة . فترحل باحثة عن شيء معلوم لديها لم يظهره النّص وهنا يبرز السؤال عن هذا الشيء المهم الذي تبحث عنه الذات ؟ أهو الراحة والاستقرار والهدوء ؟ أهو الأحبة والأهل ؟! أم أنَّه الثورة الحقيقية التي تكمّل وتصلح وتنمّي وتجمع كل سندباد وكل جزء في وطن واحد يسوده الحبُّ والسلام ؟! . وهنا يظهر لنا أن الشاعر يحاول جاهداً في تكثيف بعدين هما :١) البُعد النفسي ٢) البُعد الانفعالي. إذ يثري التجربة النفسية التي عايشتها الذات وكابدتها جراء ذلك التشظي والانحسار إلى جانب إشعال فتيل الانفعال لدى المتلقي لتجره وتسحبه فيكون طرفا آخر في المعادلة الرمزية والتجربة الشعرية .

من كلّ ذلك يتراءى لنا نوعاً من التماثل الأيقوني في أطراف الإشارة الشعرية في المقطوعة الدراماتيكية ، ما يحقق للرمز انتقالات حركية متوازنة مع الدلالات التي يحملها ويوحي بها . وتتحول الذات المخاطبة في سياق آخر إلى ذات متكلمة ليتحلى بصورة عفوية حشدُ من الرموز المستمدة من حقل التاريخ الشعبي . وقد تتجلى هذه الرموز عند النظرة السطحية لها عادية لكنها تجاوز ذلك إلى الإيحاء الدلالي الذي يستشف من خلال المرجعية الرمزية الأسطورية

رحلت في ذلك التاريخ أذكره ◆◆كأنها ساعة يا " سعد " لم تزد

صباح قالوا:"سعود" قبل خطبتها◆◆حبلى و"حيكان " لم يحبل ولم يلد

فسعود و إن كانت علماً إلاّ أنها تجاوزت دلالاتها التعريفية لتصبح (س) من النساء كَور الليل بطنها فساء صباحها غير أن ثمة جانبا حتمياً يفصح عنه الرمز الآخر المجاور له " حيكان " وحيكان اسمٌ لأكثر من وادٍ في أكثر من منطقة حتى أصبح رمز الخصب ..... وهذا غاية الخصب "١

١ – عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية المجلد الأول، ص٦٦٧

ذلك حيكان " اللسان " أمَّا " حيكان " النص فهو رمزٌ للجدب والجفاف وهنا يظهر لنا الدور الاستعاري وأسلوبه في التشخيص وفي تكثيف رمزيته العكسية ويقوم التقابل الضدي على المستوى السطحي بين سعود و " حيكان " بشحن الصورتين بطاقات رمزية تفصح عن بعد عميق ومكنون غائر.

فهو يشير إلى الحالة المتردية التي وصلها إليها المجتمع ، جدبٌ وجفافٌ حسّي يمثله جفاف الأخصب " حيكان" ومعنوي تمثله المرأة الحبلى خطبتها " سعود" ولربما كانت العلاقة سببية بين الرمزين " الجدبين" أو الجدب الحسي " جدب الأرض" الفقر المدقع أدى – وكان سبباً – للجدب المعنوي الأخلاقي فتبيع الفتاة شرفها " المرأة" أصبحت رمزاً للتفسخ والانحلال المجتمعي الناتج عن الفقر وتردي الحالة الاقتصادية والاجتماعية . ولأن كليهما يؤدي إلى الآخر فالتقابل الضديّ بينهما يظل على السطح دون العمق ، إذ ينزاح كلاهما عن الأصل وتنعكس الموازين في كليهما .

فالملاحظ أنَّ الشاعر يستمد مادته الرمزية من التراث الشعبي ليصبغها بالواقعية فتعبر عن واقع معيش وتجربة حية فيلتقي الخاص والعام والفردي والجمعي وتجاوز بذلك الرؤية الرومانسية التي تتخذ من الرمز ملجأ تهرب إليه من واقعها ومعاناتها ومن هنا تظهر سمة التجديد الشعري عند البردوني إذ يستمد الشاعر من حكايا الشعب وأساطيرهم قصة تلوكها أفواه الناس منذ فترة بعيدة بل أصبحت مادة الأغاني الشعبية مدة عشرين عاماً وقد تفنن الشعب في هذه الأغاني فعبرت عن الشوق للمليحة وعن الحسد لمن نالها .

فالشاعر هنا يقوم باختراق قوانين اللغة وتدمير عناصرها لكي يقوم بخلقها من جديد ويعيد تشكليها بعد أن ينفث فيها من روح أحاسيسه وعواطفه و رؤاه وأفكاره ونظرته للكون والعالم من حوله .إن الشاعر عندما يزرع ذوات النص و رموزه إنما يزرع أفكاراً ومواقف و رؤى يراها ، ويعبر عنها حسب رؤيته وإيديولوجيته .

وإذا كنَّا قد أخذنا من النص الظواهر الجزئية للرمز الشعري وهي جملة ما يمكن الإشارة إليه من تشكلات جزئية كونت لبنات أساسية في القصيدة وبنائها العام فليس معنى ذلك أنَّ التوظيف الرمزي يقف عند هذا الحد ، فالمتأمل في النص الكوني يجد أن تلك الظواهر الجزئية لا تعدو أن تكون عناصر ديناميكية جزئية في جسد كلي – هذه العناصر تشكل بمجموعها رمزاً كلياً يمكن أن نستشفه من العنوان بداية " غريبان وكانا هما البلد " فمن خلال التماهي أو التداخل بين الذاتين " غريبان " اللتين شكلتا النص عبر تحركهما الفاعل في الفضاء النّصي ثم ذوبانهما معاً في ذاتية أخرى هي " البلد " فكان جواز إطلاق نسبة

إحداهما إلى أي مكان فيه يبدو جندي /يريمي /مكرد القاضي /مثنى الرداعي /مرشد الصيدي / دبعيّ أصل والده من يافع /أمَّه من سورة المسد / رأيت نخل المكلا من ملامحه / عرفته يمنياً / أنه وطني.

إذن تتلبس الذات بالوطن " تلال بنا " " عيبان" / بينون / صخر من السد / بل لتنسل من الذات ذواتاً أخرى " سعيد في تبوك/في سيلان يحيى / في غانا أبو سند /في نيجيريا حسنً / في الملاوي ناصر العندي

كذلك تتحد الرؤية وتتماهي النظرة للعالم وتنصهر المواقف لتجمع في مدلول الرفض للواقع المعاش الذي اختلت فيه المعايير وتردت فيه القيم وانصهرت فيه الفواصل بين الأزمنة ليصبح الظلام هو المسيطر.

وفي الختام نخلص: إلى الآتي:

أولاً: إن البردوني استطاع بموهبته الفذة وعبقرية الإبداعية أن يوظف ظاهرة الرموز الحضارية اليمنية التي أشرنا إليها سابقاً فنجد أنها قد سجلت حضورا بارزا في شعره فتجلت لنا الرموز، وهي تشارك الشاعر عمق ما يحمله من مأساة أو تفائل.

ثانياً: يعتقد الباحث أن الإبداع الذي تميز به النص الأدبي في قصائد البردوني يكمن في الحوار الدراماتيكي القائم بين ذاتين وسمهما الشاعر في قصيدته بـ" غريبان وكانا هما البلد" وهاتان الذاتان تتحدان في الأفكار والرؤى وإن اختلفتا نسبيا في الجسد وفي التشكل في الأعماق وهو الرمز الذي نلمسه في ثنايا النص الذي يشكل مرجعا للوصول إلى الدلالة الرمزية الكلية في العنوان.

ثالثا: استفاد الشاعر من ثقافته التاريخية في توظيف الرموز الحضارية من خلال الموازنة بين الماضي والحاضر فهو يضع إحدى رجليه في الماضي والأخرى في الحاضر ليرضي نفسه بالماضي ويجلدها بالواقع المؤلم الذي عانى منه في عهد الإمامة وما بعدها.

رابعا:إن الرموز الخاصة التي كررها البردوني هي مفاتيح لفهم تجربته التي تتمحور حول قضايا رئيسة أبرزها قضايا الثورة، الوطن، الإنسان، والحرية والسعادة. وتضح تجربته بالرفض للثورة المزيفة، ولذلك تميز شعره بروح السخرية.

قائمة المصادر والمراجع للبحث :

- القرآن الكريم.

١. ابراهيم احمد المقحفي، معجم البلدان والقبائل اليمنية،دار الكلمة للتوزيع والنشر،صنعاء ،اليمن٢٠٠٢م.
٢. ابن منظور،لسان العرب مج٣ باب الراء مادة (رمز) دار المعارف مصر د.ت.
٣. جبور عبدالنور،المعجم الأدبي،دار العلم للملايين بيروت .لبنان،ط١٩٧٩،١م.
٤. حوار اجري معه في قناة اليمن (فيديو)
٥. د.عبد العزيز المقالح، شعراء من اليمن، دار العودة ،بيروت، بدون تحديد رقم الطبعة ١٩٨٣م.
٦. د.عبد الله البار مقال بعنوان بناء القصيدة في شعر عبد الله البردوني – عبر الانترنت
٧. د.عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر في اليمن "الرؤية والفن " ،دار العودة بيروت ١٩٨٦م.
٨. درويش الجندي، الرمزية والأدب العربي الحديث، دار نهضة مصر، د.ت.
٩. سعد أحمد الحاوي، دور الكلمة في العمل الأدبي، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.
١٠. صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م.
١١. صلاح فضل، شفرات النص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩م
١٢. عبد الله البردوني، رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه،دار الفكر بدمشق ، الطبعة الخامسة ١٩٩٥م .
١٣. عبدالله البردوني، الأعمال الشعرية، المجلد الأول إصدار الهيئة العامة للكتاب اليمن صنعاء الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
١٤. مجموعة من المؤلفين :د.أحمد نعيم الكراعين وآخرون نصوص و دراسات أدبية
١٥. محمد رضا مبارك، اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٣م.
١٦. محمد عبد الرحمن يونس، مقاربات نظرية في أهمية الأسطورة، مجلة المعرفة، العدد ٤٢ -٤٣، يونيو - يوليو ٢٠٠٦م
١٧. محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن، الطبعة الثالثة،مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م.
١٨. هدى فاطمة الزهراء،جماليات الرمز في الشعر الصوفي، رسالة ماجستير جامعة أبي بكر بلقايد -الجزائر ٢٠٠٦م.
١٩. -يمنى العيد،شعر المقالح،مرجعيته وشعريته، ضمن كتاب النص المفتوح، دار الآداب،بيروت،١٩٩١م.